المشهد في كوباني: نقاش مع رفاق «غير متحـ

ورد كاسوحة*

لا يوجد في سوريا حالياً مشاهد يمكن التعامل معها بوضوح كامل. ثمّة تحالفات تتغيّر باستمرار، وثمّة وقائع ميدانية تفرض نفسها على أيّ «قراءة مسبقة» لهذه التحالفات. وإذا كان الأمر سهلاً بالنسبة إلى الطرفين المهيمنين على المشهد حالياً، وأقصد بهما النظام و«داعش»، فهو ليس كذلك أبداً بالنسبة إلى الأطراف التي اختارت أن تكون ضدّ الهيمنة القائمة بشقّيها النظامي والمسلح. أمام هؤلاء احتمالات محدودة ولكنها ممكنة، ولكي تصبح أكثر إمكانية عليهم أن يبذلوا مزيداً من الجهد في تفسيرها، بحيث لا تبدو لمن يحكم على المشهد من الخارج طوباوية أو منحازة إلى تفسيرات إرادوية بحتة. لدينا مثلاً معركة كوباني التي ينظر إليها البعض (وأنا منهم) بتفاؤل كبير ويعتقدون بقدرتها على فتح طريق ثالث للصراع في البلد لا تكون اليد العليا فيه لأيّ من القوتين المسيطرتين حالياً. يمكن من هذه الزاوية اعتبار هذه القراءة واقعية، وفي الوقت ذاته تملك ممكنات أخلاقية كثيرة، لكنها بالنسبة إلى آخرين لا يولونها الأهمية المطلوبة، تبدو متناقضة وعلى قدر كبير من «الاختزال والسطحية». ليس من شأننا الحكم على هذه الآراء خارج منطقها الذاتي، فهي بالنسبة إلى أصحابها تبدو معقولة، وتعتمد على قراءة استراتيجية للصراع يظهر فيها الفاعلون الداخليون وكأنهم أقلّ شأناً من القوى الإقليمية والدولية التي تدير المشهد عن بعد. هذا المنطق ليس جديداً ولا يمكن اعتباره أفضل من سواه، غير أنه يضع أمام المؤمنين بقضية كوباني احتمالات للمعركة قد لا تكون جيّدة بالضرورة. وهو ما يدعونا إلى مناقشته بجدّية بعيداً عن المفاضلة التي يسهل إجراؤها على الورق وبالضدّ أحياناً من الواقع الذي يتغيّر يومياً.

سؤال التحالفات

يعتبر أصحاب المنطق أعلاه أنّ التحالفات التي «تسير في ضوئها» المعارك بين «داعش» ووحدات حماية الشعب هي التي تحدّد طبيعة الصراع، ومن هنا يجدون أنه محكوم «بأفق زمني» لا يتعلّق بقدرة الطرفين على تصعيد الغزو أو المقاومة، بل بقرار يصدر عن القوى التي تتولّى إدارة الصراع بالوكالة. الأرض التي يدور عليها الصراع تصبح في هذه الحالة قطعة جغرافية تغيب معها إرادة القتال، ويتحوّل هذا الأخير إلى شيء مبهم يستحيل تقديره من المتابعة الميدانية وحدها. لا شكّ أنّ التقدير الاستراتيجي يقدّم لنا في حالة كوباني - عين العرب معلومات وافية عن ارتباط «داعش» والأكراد بالتحالفات الدولية، وبالتالي يضع إطاراً للمعركة يختلف جزئياً عن الإطار الذي يوفّره الانحياز المسبق إليها من موقع التضامن مع المقاومة الشعبية فيها. المشكلة أنّ هذه المعلومات «لا تعود مهمّة» لاحقاً، فبحكم تغيّر الواقع القتالي يومياً ودخول أطراف جدد إلى المعركة (مثلاً لواء «ثوار الرقة» الذي يقدّم مساهمة متواضعة ضمن إطار ما يعرف بعملية «بركان الفرات» مضافاً إليه شرادم «الجيش الحر» التي وافق حزب الاتحاد الديموقراطي على دخولها كوباني أخيراً) تتراجع فعالية «المعلومات المسبقة»، ويصبح ربطها مع السياق الذي تجري فيه المعركة أصعب مع الوقت. حتى الآن تظلّ المعلومات تلك بحاجة إلى تدقيق، وهي للتذكير تؤكّد اندراج الأكراد المدافعين عن كوباني في التحالف الإمبريالي بطريقة من الطرق. فبحسب المعطى الاستراتيجي الذي يقدّمه الرفاق، لا يتحدّد الموقف من كوباني بالدفاع عنها فقط، بل بالسياق العام الذي تجري فيه المعركة، ومن الواضح بالنسبة إليهم أنه سياق يرتبط بتناقضات داخل التحالف الإمبريالي ذاته (تركيا، أميركا، البشمركة الموالية للبرزاني... إلخ). لا يبدون مهتمّين بتناقضات أخرى داخل المكوّن الكردي (أظن أنها أساسية وفارقة، رغم حصول الاتفاق في دهوك بين الأكراد، وبالتالي محاولة «تجاوزها» وجعلها ثانوية)، ويعتبرونها غير مؤثّرة بقوة الدفع الخاصّة بالمقاومة. فبالنسبة إليهم، تتساوى قوى البشمركة المسؤولة عن تسليم مدن عراقية كبرى (نينوى مثلاً) إلى «داعش» مع وحدات حماية الشعب التي لا تزال تقاوم التنظيم وتصعّب عليه مهمّته منذ شهر ونصف شهر على الأقلّ. أيضاً، يعتبرون البرزاني الذي يحكم كردستان بالتوازنات التي يمليها طابع المقاطعة الإقطاعي والمرتبط برؤوس الأموال الغربية مشابهاً لقيادة صالح مسلم التي حافظت على تماسك المجتمع المحلّي في مناطق الإدارة الذاتية وجنّبته التدمير على يد النظام أو القوى الوهابية «المحتلة» للجزيرة وشمال حلب. «من الطبيعي» أن تُهمَل هذه التناقضات في القراءة الاستراتيجية للصراع، فالتحالف الإمبريالي وفقاً لها لا يتطوّر باتجاهات مختلفة، بل يقوده «سمت» أساسي باتجاه النظام في سوريا وحلفائه الإيرانيين والروس. في المبدأ هذا صحيح، فالتحالف يبني استراتيجيته البعيدة على أساس الصراع مع روسيا وإيران وحزب الله، ولكنه في الحقيقة يواجه تحدّيات جسيمة، ويتعذّر عليه في الظرف الحالي تذليلها بدون معونة الحلفاء الإقليميين. من هنا نفهم «تطوّر» العلاقة بينه وبين تركيا، فالأخيرة رفضت الدخول في التحالف بداية، ثم وافقت مشترطة لهذا الدخول بنوداً أربعة قبل أن تعود «للرفض» على لسان أردوغان الذي قال أخيراً إنّه لن يحارب «داعش» عبر «تسليح» قوّات الاتحاد الديموقراطي التي يعتبرها حليفاً أساسياً لحزب العمال الكردستاني وزعيمه عبد الله أوجلان. هذا التذبذب لا يدلّ على وضوح في الرؤية الاستراتيجية، ويسمح «للنظرية» التي تقول بغلبة الواقع على الاستراتيجيات بأن تتطوّر أكثر. الواقع بحسب هذه «النظرية» يتغيّر يومياً ويفرض على قيادة التحالف الإمبريالي تعديل سياساتها بما يتلاءم مع الأحداث الميدانية. فهي مثلاً لم تكن متحمّسة لتسليح الأكراد في البداية، وتركتهم تحت وطأة حصار «داعش» المدعوم تركياً لأكثر من أسبوعين، ولم تتغير «استراتيجيتها» إلا حين تبيّن لها أن مقاومتهم للحصار قد

عندما تصدق الرواية السورية الرسمية

عبد المعين زريف*

لا يبدو اليوم كلُّ ذلك صحيحاً على الإطلاق. هو أقرب إلى الهذر والمبالغة والكذب والتضليل. هو نوع من الأخطاء الجسيمة القاتلة التي يفضّل السياسي أن ينساها أو أن لا تسجّل في سجله مطلقاً. ربما استطاع تدفق الأحداث القاسية الغزير أن يلقي على ما قيل ثوباً واسعاً من النسيان. إن ما ردّدته طويلاً القيادات الغربية وتوابعها الكثر في المنطقة ولاكته نخبُ المعارضة السورية من بعدهم في وصف الرواية السورية وتوقعات دمشق لقادم مستقبل منطقة الشرق الأوسط ومخاطره، عندما حذرت من العواقب الوخيمة التي سيواجهها الإقليم والعالم إذا ما جرى التساهل والعمل بعدم المسؤولية في التعاطي مع تلك المخيلات الواهمة التي قامرت باللعب في التوازن الكوني عندما أُريد اقتياد سوريا من رقبتها وتدويرها بزاوية أفقية لجهة معاكسة وضمها إلى الحلف الأميركي الآفل وذيوله وتوابعه في المنطقة. كان تكرارُ الوصف أن القيادة السورية نرجسيةٌ بعيدةٌ عن الواقع وتعيش منفصلةً عنه، يصلح لأن يكون الرادفة اللازمة التي رافقت كل التمنيات والنصائح والرغبات والإملاءات والطلبات العاجلة الفورية الغربية والعربية الكثيرة جداً التي وجّهت إلى القيادة السورية وطالبتها بالتنحي والتخلي عن الحكم، والسماح بتحقيق شعار شعبوي وارد مُضلّل لا تستقيم كلماته على سطر منطقي واحد [الشعب يريد إسقاط النظام].

راحت وسائل الإعلام المنخرطة في المشاريع الجديدة تستجلب كلَّ الشواهد والأدلة لتثبت رأيها الذي أصبح روايةً شائعةً طاغيةً لم يقف في وجهها إلا أصواتٌ خافتةٌ أريد كتمها بسرعة. اختصر هذا الإعلام سوريا المتنوعة الأطياف بنظام طائفي، وراح يراقب كل هذا النظام وحالته المعنوية وقدراته اللوجستية الكبيرة من خلال التقاط ذلك من تعابير الرئيس السوري وحركاته وانفعالاته وعدد المرات التي ابتسم فيها أو قطّب حاجبيه. وبلغ الهوس مبلغه بذلك التدقيق في ألبسته وأحذيته وحركات جسده وطريقة وقوفه أو جلسته بما يشكل طريقة ساذجة لا تصح إلا في العقول البسيطة المسطحة.

وشاعت الأكاذيب المشكلة لهذه الرواية، وادُّعيَ أن الرئيس يعيش في غواصة روسية راسية في عرض البحر معزولاً بعيداً عن كل مجريات الأحداث في بلده، ونقلته الشائعات من بلد إلى آخر وقيل الكثير عن هروب عائلته. وشيطنت الدولة بكل مؤسساتها وخاصة الجيش وقدّست الثورة السورية بما يخالف جوهرها وقلبها المليء بكل المتناقضات والقابل للانفجار منذ بداية انطلاقها. بات الكلام الذي كان يصدر من دمشق أشبه بالعبث والصراخ في الصحارى القاحلة لا صدى ولا مجيب له. اصطدم بحائط متين لا يمكن اختراقه بسهولة، كانت الرواية المضللة المقابلة كتيمةً وحيدةً لم تسمح الجهات المصنّعة لها بروايةٍ أخرى موازية أو بديلة. إن المراجعة الشاملة الدقيقة لسيل الأحداث الكثيرة والمكثفة الرهيبة التي اجتاحت المنطقة خلال السنوات الثلاث والنصف الأخيرة بعد محاولة إسقاط الدولة السورية، وإعادة قياسها إلى نتائجها الحاضرة تجعل كثيراً من ساسة العالم يكررون متأخرين جداً الرواية السورية بذاتها وحذافيرها وما بقيت دمشق تحذر منه طوال سنوات الأزمة ومنذ الأشهر الأولى لدخول أصحاب الأحلام في مغامرة الحرب لامتلاك سوريا والهيمنة عليها ضمن سياق ما دعي «الربيع العربي» وأجواء «الفوضى الخلاقة»، والتي وعِدت بها المنطقةُ قبل ذلك بسنوات عدة. فها هو العالم اليوم يستنفرُ مستدركاً تهاوناً وتواطؤاً، بعد فترة طويلة من التآمر والسماح لمغامرات خطرة لتغيير التوازن الدولي الدقيق وبناء معادلات جديدة، قام بها وكلاء إقليميون تنافسيون حالمون بمشاريع سلطوية جديدة للفوز بوكالات حصرية من مراكز القوى العالمية في المنطقة استخدموا فيها كل المحرمات والمباحات، وكسرت قواعد الأعراف والتقاليد والقوانين الدولية. وتخطت السياسات القطرية والسعودية والتركية كل المعقول وراحت ترمي بكل المواد الانفجارية والانفجاريين وعوائد النفط والغاز إلى داخل الساحة السورية، وكأن عيون العالم قد أصابها العمى أو أن قوانين عدم التدخل في شؤون الدول الداخلية أدخلت الغيبوبة أو وضعت في ثلاجة الأموات.

لا تكاد تحصى تلك التقارير التي سجلت الأدوار لكثير من الدول المنخرطة في تصدير الإرهاب إلى الأراضي السورية، وصارت هذه الدول مثل تركيا وقطر والسعودية والأردن والكويت والإمارات ومن خلفها دول الاستعمار القديم والجديد غير قادرة على الاستمرار بلعبة التغابي وغض الطرف عن الصورة الخطيرة المذهلة ورواية الواقع التي حذرت منها دمشق وجمعت آلاف الوثائق وقدمتها لمجلس الأمن والأمم المتحدة.

إن الواقع القاسي والمجريات الرهيبة ودماء الأبرياء ومعاناتهم فقط هي التي أطاحت تلال الأكاذيب والأضاليل التي صدرت عن الوضع في سوريا والعراق، فانتهكت الحرمات والسيادة الوطنية للدول وتغيّرت الجغرافية وسالت دماء أهل المنطقة أو هجروا من بيوتهم وخلفوا أرزاقهم وأصبحوا لاجئين يطلبون الأمن والأمان في المخيمات الغريبة.

أين هذا كله من ذريعتي ثورات المنطقة، وهما الحرية أو تطبيق الشرع الديني!

سقطت ذرائع الثورات المصنعة وانكشفت الصورة للجميع حتى لأولئك الذين فضلوا إغماض أعينهم ليسوقوا مصالحهم

الأخبار al-akhbar
■ رئيس التحرير
المدير المسؤول: ابراهيم الأمين
■ نائب رئيس التحرير: بيار أبي صعب
■ مديرا التحرير: إيلي شلهوب، وفيق قانصوه
■ مجلس التحرير: محمد زبيب، حسن عليق، مهى زراقط، إيلي حنا، أمل الأندري، شربل كريم
■ صادرة عن شركة أخبار بيروت
■ المكاتب بيروت فردان شارع دونان سنتر كونكورد الطابق السادس
■ تلفاكس: 01759500 01759597
■ ص.ب 113/5963
■ الإعلانات الوكيل الحصري شركة بروموفيكس 01/788200
■ التوزيع شركة الأوائل 15ـ01/666314 03 / 828381
■ الموقع الالكتروني www.al-akhbar.com
■ صفحات التواصل
/AlakhbarNews
@AlakhbarNews
/alakhbarnewspaper